الشعر واللحن

obeikan.com

obeikan.com

الشعر واللحن

مارس العرب ملاحن بديعية وغير بديعية ضمنوها أشعارهم ، وعموا بها أغراضهم ، فاستخدموا التورية ، والتصحيف والتحريف ، والانعكاس مع تغير المعنى دون الكلام ، والانعكاس مع استقامة المعنى وانتظام الحروف ، وقد يحسن التمثيل للإيضاح .

ربما يأخذنا العجب إذا قرأنا شعرا من اليمين إلى الشمال ، وألفينا الشاعر فيه يمدح العرب ، فإذا قرأناه على مستوى الكلمات من الشمال إلى اليمين ، ألفينا الشاعر يذمهم . يقول الشاعر مادحًا :

حلموا فما ساءت لهم شيم　　سمحوا،فما شحت لهم منن

سلموا ،فلازلت لهم قدم　　رشدو ا، فلا ضلت لهم سنن

فالشاعر هنا يثنى على العرب ، ويصفهم بالحلم ، والأخلاق السمحة ، وكثرة النعم ، والرشد واستقامة المبادئ، ثم إنك إذا أعدت قراءة البيت من الشمال إلى اليمين جاءت على

النحو التالي:

منن لهم شحت، فما سمحوا شيم لهم ساءت فما حلموا
سنن لهم ضلت فلا رشدوا قدم لهم زلت فلا سلموا[1]

وهذا الشعر هجاء صريح للعرب يجردهم من كل ما مدحهم به من البيتين السالفين . وهكذا يمكن أن يعمى الشاعر قصده بهذه الطريقة .

وإذا كنا في المثال السابق عكسنا القراءة على مستوى الكلمات فإننا في المثال الآتي نعكس القراءة على مستوى الحروف من الشمال إلى اليمين ، فإذا بالشطر الثاني هو نفس الشطر الأول . يقول الشاعر:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

فعليك أن تبدأ الشطر الثاني بقراءة الميم ثم الواو ثم الدال ثم التاء ، ثم الهاء (مودته) إلى آخره ، وهذا ما يسمى بـ «مالا يستحيل بالانعكاس».

والتصحيف يغير المعنى لأنه يبدل الحروف بتغيير النقط ، أما التحريف فهو تبديل الحركات، ومن أمثلة ذلك قول شاعر في الهجاء:

(١) الشيخ ناصيف اليازجي «مجمع البحرين».

من رام أن يلقى تباريح الكرب ... من نفسه فليأت أجلاف العرب
يسر الجمال والجلال والخشب ... والشعر والأوبار كيفما انقلب
أسرق أهل الأرض عن أم وأب ... وأسمج الناس وأخزى من نهب
لا تعرف الأقدار فيهم والرتب ... ولا يبالون بأحرار النسب

لكن يغارون على حفظ النشب

وهذا الكلام عينه عندما تم تصحيفه وتحريفه صار مدحًا صريحًا، ودونك الشعر بعد تحريف الكلام عن مواضعه، وتغيير نقاط الحروف.

من رام أن يلقى تباريح الكرب ... من نفسه فليأت أحلاف العرب
يسر الجمال والجلال والحسب ... والشعر والأوتار كيفما انقلب
أشرف أهل الأرض عن أم وأب ... واسمح الناس وأجرى من يهب
لا تعرف الأقدار فيهم والريب ... ولا يبالون بإحراز النشب

لكن يغارون على حفظ النسب

فانظر التصحيف في البيت الأول مثلا في كلمة أجلاف التي صارت «أحلاف»، وانظر التحريف في البيت الثاني بين الجمال والجلال بكسر الجيم ثم بفتحها بعد ذلك وكيف أن التصحيف والتحريف عميا المعنى في ناحية ووضحاه في ناحية أخرى.

وإذا كانت التورية قد استخدمت في النثر وأدت الغرض منها، فإن شعراء آخرين جعلوها في قوالب الشعر معاني غامضة لتخفي ما في صدورهم، ومن أمثلة ذلك:

رأيت يا قوم أقوامًا غذاؤهم بول العجوز وما أعنى ابنة العنب

بول العجوز : لبن البقرة.

وقادرين متى ما ساء صنعهم أو قصروا فيه قالوا الذنب للحطب القادر

والقادر الطابخ في القدر، والقدير المطبوخ فيها.

ومرضعًا بلبان لم يفه فمه رأيته في شجار بين السبب

الشجار، المحفة ما لم تكن مظللة فإن ظللت فهو الهودج.

والسبب ههنا الحبل ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [1].

ومثل هذا الشعر يفتقر إلى النضرة والحيوية، ولكنه يبرز مهارة الشاعر وموهبته في نظم هذه الأشعار، ويدل على صفاء أذهان صانعيه وطول بالهم ، فكم أمضى الشاعر من وقت حتى صاغ بيتا من هذه الأبيات!! ولا شك أنه شعر متكلف ولابد أن يكون كذلك لتأدية الغرض الذي صيغ من أجله وهو اللحن، فهو بمنزلة قناع يخفي أغراض قائله:

(١) مقامات الحريري.

وكل ما ذكرناه هنا هو من طرق المحاجاة أو اللحن الكتابي والبديعي، أما في الترجمة فإن بعضهم يعمى الشعر باستبدال أسماء طيور بحروف البيت، وإليك المثال الذي يذكره ابن طباطبا ويتناول تعمية مطلع معلقة امرئ القيس.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقد تم تبديل حروف البيت على النحو التالي:

طاووس تدرج باز شاهين باشق يؤيؤ عقاب شاهين
صقر يؤيؤ نسر رخمة غراب باشق رخمة باشق
غداف عقاب شاهين دراج طهيوج باشق قبجة طاووس
ورشان باز طيهوج طيهوج غداف رخمة باشق رخمة
شاهين باز طيهوج حمامة بطه غداف طيهوج تدرج
غراب غداف عقاب طيهوج

ويلاحظ أن عدد هذه الكلمات يطابق عدد حروف البيت وهو أربعة وأربعون[1].

وليست هذه هي الطريقة الوحيدة أو الطريقة المثلى، ولكن يمكن استبدال أسماء حيوانات أخرى أو ناس أو فواكه أو جواهر أو خرز بالحروف، ومثل هذه التعمية لا تفهم بالبديهة أو بالفطنة.

(١) د. مراياتي – علم التعمية.